مجلس الشورى لابليس

لشاعر الهند المرحوم الدكتور محمد اقبال

بمناسبة أسبوعه الذى سيقام فى (لاهور) آخر هذا الشهر احتفالا بذكراه

ترجمة الدكتور السيد محمد يوسف

كلمة المترجم

لا يزال العالم مسرحاً للنزاع بين الحق والباطل . ولئن كانت كفة الحق رجحت فى فترات من التاريخ ولا سيما إبان ظهور الإسلام فى عصرنا هذا نرى الدنيا كلها تعانى نظاماً إبليسياً يقوم على أساس استعباد الإنسان للانسان . ومما يدعم هذا النظام أن الدين لم يعد يلعب دوراً إيجابيا فى الحياة البشرية مع أنه بقى منه عناصر شتى فى صورة مشوهة ممسوخة تعمل عمل الأفيون فى تنويم الطبقات المهضومة الحقوق ، مثل الاعتقاد بقضاء الله وقدره ، ولكن أصبح من المقرر أخيراً أن الإنسانية متبرمة من هذا النظام وربما ظهرت هناك تيارات فى الفكر واتجاهات فى العمل تدل على أن الإنسان قد بدأ يتفقد نوع النظام الذى يكفل له ما يعوزه تحت النظام الحاضر ، فتارة نسمع الأصوات تعلو مدوية بدك الحكم للأمة ، وتارة أخرى نرى الناس يمجدون بتعاليم ماركس ، ويهرعون إلى مبادئ الشيوعية التى كانت الفاشستية تعد قوتها لمناوأتها والقضاء عليها حين نظم الدكتور إقبال أبياته المترجمة فيما بعد فى سنة ١٩٣٦ — نعم نلاحظ جميع هذه التيارات المتضاربة فيخيل إلينا أن النظام الإبليسى قد سار على وشك الانهيار وأن فجر السعادة سينبلج عن قريب . ولا غرو إذا استدعى هذا الحال عقد جلسة هامة لمجلس الشورى لإبليس يوم كانت بوادر الحرب الماضية قد لاحت فى الأفق لكل ذى بصيرة وخبرة . وهاهو ذا الشاعر يطلعنا على ما جرى فى تلك الجلسة بين إبليس ومستشاريه . والآن بعد أن اشتعلت الحرب العالمية ثم وضعت أوزارها ، وفزعت الشعوب المختلفة من وضع القائمة لربحها وخسارتها — الآن نحن فى موقف يسهل علينا فيه أن نحكم على حسن تدبير إبليس أو بعبارة أخرى صدق تنبؤ الدكتور إقبال وبعد نظره فيما صرح به من أن جميع الحركات الإصلاحية ليست فى الحقيقة إلا أجزاء من خطة واحدة مدبرة من ناقاه إبليس الذى لا يهدر سلطانه إلا الإسلام .

أما الإسلام فإنه وإن كان خطراً عظيما بالقوة لكنه ليس بخطر بالفعل ؛ لأن المسلم قد فقد الإيمان برسالته والثقة بنفسه ؛ فاعتزل معترك الحياة وتنازل عن الدنيا وما فيها فلا يهمه مصير الإنسانية وأوضاع العالم إذا هو شغل فكره فى الترف العلمى المفسد لقوة العمل مثل الإلهيات والكلام؛ وإذن فليس على إبليس للاحتفاظ بسيادته على الأرض إلا أن يستمر فى صرف نظر المسلم — عدوه الوحيد — عن الحياة والجهاد فى سبيلها .

ولكن مهما يكن الحال باعثا على الاطمئنان من ناحية المسلم فالخطر لا يزال متمثلا أمام إبليس فى طبيعة الإسلام وجوهره ؛ لأن الإسلام ينطوى على استنكار الاستعباد بجميع أنواعه وتزكية الثروة وجعلها أمانة فى يد المنعمين . وهاتان الناحيتان — السياسية والاقتصادية — هما اللتان تهمان الإنسانية فى الوقت الحاضر . فلو اهتدت بمقتضى الظروف إلى اكتشاف مبادئ الإسلام — الملك لله والأرض لله — لقضى الأمر على إبليس . فلذلك نراه يسهر على حجب هذا الطريق المستقيم عن أنظار الجمهور المتلمسين طريقهم فى الظلام ليبقوا حيارى متطرفين تارة إلى اليمين وتارة إلى الشمال .

ومما يجب التنبيه إليه أن رسالة إقبال — رسالة الجد والعمل المنتجين — هى تسخير الأسباب المادية والسيطرة التامة على الأحوال والنظم الاجتماعية دون الخضوع لها ؛ فهو دائماً شديد الاغتباط بمظاهر الحركة والنشاط حتى فى حياة إبليس ولا يملك الاستهزاء بالركود والجمود فى الملائكة المشتغلين بالتسبيح والتقديس فقط كأنه يريد التأكيد بأن الفضل كل الفضل فى المغامرة والمخاطرة لا فى الانحياز وسلامة النفس . وهذا أسلوب مطرد للدكتور إقبال فى معالجته لشخصيات موسوليني ولينين وماركس ؛ فإنه ينوه بحيويتهم دون أن يتقيد بمراميهم . وسنرى هذا الأسلوب يتجلى أمامنا بصورة بارزة فى هذه الأبيات المترجمة

السـنة سنة ١٩٣٦ م

إبليس — هذه الدنيا لعبة العناصر من قدم ، تقطعت آمال سكان العرش الأعظم حسرات عليها ، قد أزمع الآن على خرابها ذلك المصرف للامور الذى سماها عالم الكاف والنون(١) أما أنا فقد أريت الأفرنج حلم الملوكية وأبطلت سحر المسجد والدير والكنيسة ، وإنى لقنت المدمنين درس الغدر ؛ وألهمت المتمعين جنون الراسمالية . أفيطيق أحد إطفاء النار المستعرة فيما تستند وقائمها إلى لوعة فى قلب إبليس ؟ وهل يطيق أحد قلع تلك النخلة التى تمتد أعصانها بتربتنا نحن ؟

المستشار الأول — لا شك أن هذا النظام الإبليسى محكم ، إذ تأصل من جرائه الموام فى طريق الاستعباد . هؤلاء المساكين قد قدر عليهم السجود من الأزل حتى أصبحت الصلاة بدون القيام(٢) من مقتضيات فطرتهم ، لا يمكن أبداً أن يتولد فيهم أمل . ولئن ولد أحياناً فلا بد من أن يموت أو يبقى فجاً ناقصاً . إن من معجزات سعينا المتواصل أن أصبح المتصوفون وأئمة الدين كلهم من عباد الفردية وإنما كان هذا الأفيون يوافق طبع الشرق ، وإلا فعلم « الكلام » لا يقل شيئاً عن مزامير القوال . ولو بقى الاحتفال بالطواف والحج فما الذى يهمنا من أمره ؟ إذ أن سيف المؤمن المسلول قد فُل ، وعلى قنوط مَن يدل هذا الفرمان الجديد أى قولهم أن الجهاد محرم على المسلم فى هذا العصر ؟

المستشار الثانى — أخير هذا الضجيج بشأن « الحكم للجمهور » أم شر ؟ عجباً إذ لست مطلعاً على الفتن الناشئة فى الدنيا

المستشار الأول — إنى على علم ، ولكن خبرتى بالدنيا ترشدنى إلى أنه لا داعى للخطر أبداً من ناحية ما هو قناع للملوكية ليس إلا . نحن بأنفسنا خلعنا على الملوكية زى الجمهورية إذا تنبه ابن آدم قليلا إلى عرفان نفسه وتقدير ذاته . إن أمر الملكية يمتاز بماهيته الخاصة بحيث لا يقتصر أبداً على وجود « الأمير والسلطان » سواء أكان هناك مجلس الملة أم أركان دولة أبرويز ، « السلطان » عبارة عن كل من يطمح ببصره إلى زوج غيره . أو لم تر إلى النظام الجمهورى فى الغرب ؟ الظاهر مشرق ، أما الباطن فهو أظلم من جنكيزا

المستشار الثالث — كلما بقيت روح الفردية فلا داعى إلى الاضطراب . ولكن كيف نتقى المعارضة لفتنة ذلك اليهودى الذى هو الكليم ؟ إلا أنه ينقصه التجلى وهو المسيح ؛ بيد أنه ليس معه صليب . ما هو بنبى ولكنه متأبط كتاباً . يعوزنى التعبير عن نظرة ذلك الكافر الهتاك للأستار كأنما هى القيامة لاقوام الشرق والغرب . وهل يكون هناك أشنع من فساد الطبع هذا ؟ أعنى أن الارقاء قوضوا أطناب خيام مواليهم .

المستشار الرابع — انظر تر معارضة تلك الفتنة فى إيوان رومة الكبرى ؛ فإنا نحن قد جعلنا آل قيصر يحلمون بحلم قيصر مرة ثانية . من الذى يلتف بأمواج بحر الروم ، يملو تارة مثل الصنوبر ، ويزمجر تارة أخرى مثل الرباب ؟

المستشار الثالث — أنا لا أسلم بالتبصر فى العواقب لمن فضح سياسة الإنجليز بمثل هذا الطريق .

المستشار الخامس — (مخاطباً إبليس) : يا من بحرارة أنفاسه يقوم أمر العالم ! كلما شئت أنت هتكت أية خبيئة . بفضل حرارتك يتحول « الماء والطين » إلى عالم الحرقة والزمجرة ؛ كما أنه بإرشادك يصبح أبله الجنة بصيراً بالأمور . إن الذى يعرف بين العباد الساذجين باسم « الرب » لا يزيك أبداً فى الخيرة بفطرة آدم . إن الذين يشتغلون بالتسبيح والتقديس والطواف لا غير ، لا يزالون خجلين ناكسى الرءوس أمام غيرتك . لئن كان جميع السحرة الإنجليز لا يزالون مطيعين لإرشادك على الرغم من ذلك ، فإنى فقدت الثقة بفراستهم . ذلك اليهودى الماكر الذى برزت فيه روح مزدك قد أوشك أن يتمزق كل رداء من جراء جنونه . وقد أصبح الزاغ الصحراوى مساوياً للشاهين والصقر . ما أسرع طبيعة الدهر تبدلاً ! تلك التى ظننا ها قبضة من الغبار قد تبعثرت وحجبت الأملاك ، وبلغ الذعر من الفتنة المتطرة بالمد إلى أن ارتعدت منه الجبال والمروج وضعاف الأنهار يا مولاى إن العالم الذى يعول على سعادتك فقط ، ذلك العالم على وشك الانقلاب

(١) إشارة إلى قوله تعالى : (كن) فيكون

(٢) يؤكد الدكتور إقبال أن الخضوع لله يستلزم الاستعلاء وعدم الخوف بالنسبة إلى كل ما سواه والقيام فى الصلوة كأنه رمز للاستقلال والثبات فى وجه غير الله كما أن الأركان الأخرى ولا سيما السجود تعبير عن التسليم لله —

إبليس — (يخاطب مستشاره) : إن عالم الكون والرائحة بما فيه من الأرض والشمس والقمر والسماء طبقاً على طابق ، إنما هو طوع بنانى . وسيشهد الشرق والغرب بينهما ما يعجبهما إذا ما أحييت أنا دم أقوام أوربا . إنما تكفى صرخة واحدة منى لحمل كل إمام من أئمة السياسة وشيوخ الكنيسة على الغلواء . ولو كان أحد من السفهاء يرى أن الثقافة الحاضرة من صنع الزجاج فليجرب بنفسه كسر أدواتها من الكأس والكوب . إن الجيوب التى مزقتها يد الفطرة لا يمكن أبداً أن ترقأ بإبرة المنطق المزدكى . أنسى يمكن أن يهولنى هؤلاء الشيوعيون المترددون إلى الأزقة قلق الأحوال موزعى الفكر مختلطى الأصوات ؟ ولكن لو كنت أشعر بخطر فهو من جهة تلك الأمة التى ما تزال شرارة الأمل مخبأة تحت رمادها . لا يزال يوجد بين هؤلاء القوم عدد قليل من الظالمين الذين يتوضأون بالدموع بالابكار . كل مطلع على بواطن الأيام يتأكد من أن فتنة الغد هى الإسلام لا المزدكية .

— ٢ —

أنا أعرف أن هذه الأمة لم تبق حاملة للقرآن ، وأن الرأسمالية هى بعينها أصبحت ديناً للعبد المؤمن . ولا يغيب عنى أن أكمام شيوخ الحرم خلو من اليد البيضاء للاضاءة فى ليل الشرق البهيم . ولكنى أخاف من مقتضيات هذا العصر أن تؤدى إلى تبيان الشريعة النبوية . وحذار ثم حذار من الدستور النبوى فانه حافظ لناموس المرأة ، ومبتلى المرء ومكونه . إنما هو إنذار بالموت لجميع أنواع الاستعباد حتى لا يبقى بعده لا الفغفور أو الخاقان ولا المسكين المرابط بالطريق . هو يطهر الثروة ويزكيها من كل رجس ، ويجعل المنعمين أمناء على المال والثروة . وهل يكون انقلاب فى الفكر والعمل فوق هذا : « الأرض لله لا للملوك » يا حبذا لو بقى دستور كهذا مخبأ عن عيون العالم . ومن المغانم أن المؤمن نفسه يعدم اليقين (١) والخير فى أن يبقى هو مشتبكا فى الإلهيات مشغولا فى أوجه تأويل كتاب الله .

— ٣ —

لا أضاء الليل المظلم للمتقى الذى تبطل تكبيراته طلسم الجهات الستة ! هل مات ابن مريم أم هو حى خالد ؟ هل صفات ذات الحق هى عين الذات أو منفصلة عنها ؟ هل المقصود من « الموعود » هو المسيح الناصرى أو المجدد المتصف بصفات ابن مريم ؟ هل ألفاظ كلام الله قديمة أو حادثة ؟ بأية عقيدة تنحصر نجاة الأمة المرحومة ؟ هذه المجموعة من اللات ومناة من صنع الإلهيات . أولا تكفى هى اشغل العالم فى هذا العصر ؟ عليكم أن تجنبوه عالم العمل حتى تفشل كل خطة له فى ميدان الحياة . الخير كله فى أن يبقى المؤمن مستعبداً إلى يوم القيامة ، متنازلا لمصلحة الآخرين عن هذا العالم الذى لا ثبات له . إنما يليق به الشعر والتصوف اللذان يحجبان عن نظره مسرح الحياة . أنا لا أزال متخوفاً كل لحظة من يقظة هذه الأمة التى تنطوى حقيقة دينها على احتساب الكائنات . عليكم أن تشغلوه عن نفسه بالذكر والفكر وأن تحصروه فى المزاج الخانقاهى (أى الرهبانية)

السيد محمد يوسف الهندى

(١) يعنى الإيمان القوى بحيث لا يتطرق إليه شك وهو المحرك للعمل

للأستاذ الزيات

نفدت الطبعة العاشرة من هذا الكتاب

أما الطبعة التي تباع الآن في البلاد العربية

فاحترس منهـــا

انها طبعة مزيفة فيها النقص والخطأ والتحريف والتشويه زيفها أهل الكتبيين في القاهرة

انتظر الطبعة الحادية عشرة قريباً

طبعة أنيقة صحيحة فيها زيادات كثيرة

ولاسيما في العصرين العباسي والحديث